

المصباح

١٣١٥

مصر في يوم السبت ٦ رجب سنة ١٣١٧ الموافق ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٩

﴿ الكرامات المأثورة ﴾

«وهي الحامسة من مقالات الكرامات»

نتخول القراء بمباحث الكرامات نخو لا خشية السامة من اتصال الكلام في الموضوع الواحد وانما نصدقهم الوعد بالتدرج بحيث لا يتلون ولا يسأمون ولا نحن نفعل مايسنح لنا من المباحث الأخرى بمناسبات الزمان واختلاف الاحوال .

تبين في المقالة الرابعة ان حجج مثبتي وقوع الكرامات على ضربين أحدهما ماورد في الكتاب العزيز وقد ذكرنا ملخص ماقلوه في الآيات القرآنية التي يدل ظاهرها على وقوع الحوارق لفسير الانبياء وحققنا ان قصارى مايجتج به منها على ثبوت كرامات الاولياء هو الالهام الصحيح لبعض أصحاب النفوس الزاكية كأتم موسى عليه الصلاة والسلام وما في معناه ككلام الملائكة لمريم عليها السلام وانه يحتمل ان يكون هذا مما قبله . فثبت ان الالهام هو مما يكرم الله تعالى به أوليائه وأصفياءه . باشرافهم أحيانا على مايعزب عن علم غيرهم فنقف عند حد ماورد وثبت ولا نقيس عليه غيره لان

ما جاء على خلاف القياس وغير المعهود لا يصح ان يقاس عليه كالأحكام الشاذة في سائر العلوم والفنون . وقد قضت الجهالة بالدين والعلم بان تخضع الأمة للناس من يظهر على يده شيء غريب عما ألفت واعتادت ولن كان شعورنا أومبنيًا على صناعة خفية معها ظهر صاحبها بلباس الدين وزين النسك أو المجانين .

(الضرب الثاني) ماورد عن سلف الأمة ومن بعدهم الى يومنا هذا . وقد سبق القول في مقالة (حجج منكري الكرامات) بان حججهم الخامسة هي انه لو كان للكرامات أصل لكان أولى الناس بها الصدر الاول فاتهم صفوة الاسلام وأشد استمسكًا به ممن بعدهم . وقلنا هناك بان السبكي قد أجاب عن هذه الحجة بسرد الكرامات المأثورة عن الصحابة عليهم الرضوان ووعدنا بان نمد هذه الكرامات في حجج الاثبات عدلاً . وتبعتها تأييداً أو رداً . وقد ضاقت عن ذلك مقالة حجج المثبتين الماضية فنذكرها ههنا وهي

(١) على يد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . وذكر أثر عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله تعالى عنها وفيه ان أباهما أخبرني وصيته لها عن وفاته وعن حمل له لم يكن معروفًا وعيَّنه بانه أنثى حيث قال في سياق كلامه (وانما هما أخواك وأختك) فقالت انما هي أسماء فمن الاخرى ؟ فقال (ان ذابطن بنت خارجة أراها جارية) فكان كما قال . أقول وهذا من الالهامات الصحيحة التي أثبتناها وقد ورد في الصحيح انه كان في الامم قبلنا محدثون (بفتح الدال المشددة) أي ملهمون وان عمر بن الخطاب من المحدثين في هذه الأمة . وأجدر بأبي بكر ان يكون محدثاً أيضاً !!

(٢) ثم ذكر حديث عبد الرحمن ولده (رضي الله عنهما) في الاطعام وفيه ان الطعام كثر في القصعة ببركة أبيه قال عبد الرحمن وأيم الله ما كنا

نأخذ لقمة الأربا من أسفلها أكثر منها قال حتى شبعا وصارت بعد ذلك
 أكثر مما كانت بثلاث مرار . أقول اذا ثبت هذا فهو الحارق الحقيقي لان
 زيادة الطعام حقيقة لا تكون الا بخلق جزء منه يوجد من الدم لان النمو
 بالاستمداد من الاجسام الاخرى كما في الحيوان والنبات لا يتأتى فيه . وقد
 حار العقلاء في سر الخلق وكيفية اليجاد من الدم حتى كاد هذا الامر ان
 يكون وراء ما يقدر البشر على تصوره . ومثله اعدام الموجود فاليجاد والاعدام
 من الاسرار الالهية التي لم يطلع الله عايبها أحداً من خلقه والحكماء متفقون على
 ان القوى البشرية عاجزة عن إيجاد نحو ذرة أو رملة وعن اعدام نحو نقطة
 ماء من الوجود وان بلغت من العلم ما بلغت . ولكن البراهين العقلية تثبت
 ان وجود هذا العالم ممكن لا واجب وان الممكن لا وجود له من ذاته لانه
 لا يكون الا حادثا وهذا هو الدليل على ان الله تعالى خالق كل شيء . أما الخبر
 فهو عند الشيخين وهو من اخبار الآحاد التي تقيد الظن لذاتها وليس الموضوع
 في نفسه من قضايا الدين فمن اطمن قلبه له وصدقته لثقتة بروايته فله ان
 يقيم على ظاهره ويبدته من الخوارق وله ان يأوله ليطلق المعروف في العلم
 موافقاً لما في الدين من ان الله تعالى جعل لكل شيء يحدث في هذا الكون
 سبباً ولذلك سمي عالم الاسباب . فالله تعالى خلق مادة الكون بمحض ارادته
 المعبر عنها في الكتاب بلفظ (كن) ثم جعل بعد ذلك لكل شيء سبباً كما هو
 مشاهد وبعض أئمة الصوفية كالشيخ الأكبر يسمي ما وجد أولاً بمحض
 الارادة (عالم الامر) وما خلق بعد ذلك بالاسباب المعبر عنها في لسان
 الشرع بالسنن الالهية (عالم الخلق) والله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين .
 أما طريق التأويل فمن الممهود عند الناس ان يقولوا كأن هذا الطعام أو الماء

قد زاد وبورك فيه وكأن الاناء ينبوع اذا كنفهم من حيث يظنون انه لا يكفيهم واذا زاد مع ذلك عن الحاجة يبالغون في القول فيقولون انه قد زاد أو تضاعف أو صار أكثر مما كان وان الاناء لينبع نبعا كما يقولون ان الارض قد طويت اذا قطعوا المسافة في مدة أقصر مما كانوا يتوقعون . وكل هذا من قبيل التشبيه البليغ المعهود في اللغة العربية بكثرة ولا تكاد تخلو منه لغة من اللغات . ولكن التفسير بقواه أكثر مما كان بثلاث مرار ينأى بالكلام عن التجوز ويدنيه من ارادة الحقيقة . وكثيراً ما كانوا يروون الاحاديث بالمعنى فلسنا على ثقة من نص عبارة عبد الرحمن رضي الله عنه . على ان هذه الكرامة ليست مسندة الى النبي صلى الله عليه وسلم فالبحث فيها انما هو بحث في خبر تاريخي وانما سمينا الكلام حديثاً لان فيه ان الطعام حمل بعد ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فأكل منه الخلق الكثير

(٣) ماروي عن عمر الفاروق رضي الله عنه . وذكر السبكي في مقدمته

قصة سارية بن رستم الجليحي وهي مشهورة وفيها كرامتان احدهما انه اطلع وهو على منبر حرم المدينة على حال جيش سارية مع العدو في نهاوند وان العدو أعد له كميناً في الجبل والثانية انه ناداه (ياسارية الجبل) فاسمعه . ونحن نقول ان هذه القصة مما تتوفر الدواعي على نقله بالتواتر لانها وقعت والمسلمون كلهم مجتمعون في المسجد يسمعون الخطبة وهي من الغرابة في نفسها وعظم الشأن في موضوعها بالمكانة التي نعرفها . ولو حدث بها الجم الغفير من الصحابة حدثت بها أضعاف اضعافهم ممن بعدهم لانهم كانوا اسمع للفرائب . وأولع بالمعائب . ومع ذلك مارواها البخاري ولا مسلم ولا اصحاب السنن الاربعة ولا اصحاب المسانيد من قبلهم وانما انفرد بها البيهقي من المحدثين وتناقلها كثير من

المؤرخين ، الذين جمعوا بين الفث والسمين . وقد وطن قومنا نفوسهم على قبول جميع ما يسند الى عظماء الامة على علاقته صح أو لم يصح ومن بحث في ذلك ينسبونه الى التقصير في تعظيم السلف « وما تعظيم السلف الا بالاعتداء بهم » حتى ان عالماً مثل التاج السبكي قال في بيان هذه الكرامة ان عمر رأي القوم في نهاوند عياناً وكان كمن هو بين اظهرهم (او طويت له الارض وصار بين اظهرهم حقيقة وغاب عن مجلسه بالمدينة) فكيف جوز انتقال عمر من المدينة الى نهاوند وارشاده امير الجيش ورجوعه كلمح البصر ولو حصل هذا للملأ خبره الخافقين مع انه لم يقل به احد قط . اللهم ان غرامنا بالتأويل قد اطفأ فينا نور الفطرة والعقل وطمس معالم العلم والدين فانقذنا اللهم من الاحتمالات والتأويلات واتحفنا بعلم اليقين انك على ما تشاء قدير

(٤) ومنها قصة الزلزلة - نقل السبكي عن الشامل لامام الحرمين ان الارض زلزلات في زمن عمر رضي الله تعالى عنه فحمد الله واثنى عليه والارض ترتجف وترتج ثم ضربها بالدرة وقال قري الم اعدل عليك ؟ فاستقرت من وقتها اه اقول ان الزلزلة ليس لها زمن معين فيقال انها استقرت قبل انقضائه كرامة لعمر رضي الله تعالى عنه . ولا اذكر اني رأيت لهذا الاثر رواية صحيحة ولكن صحت الرواية فقد علمت ما فيها . وقد اطال السبكي الكلام في هذه المسئلة وزعم ان الفاروق كان يؤدب الجمادات كالارض كما يؤدب الناس لانه خليفة في الظاهر والباطن وزعم ان الارض لا تزلزل الا لسببين جور الحكام واليوم المعلوم المشار اليه بقوله تعالى (اذا زلزلات الارض زلزتها) وتكلم في تفسير السورة بما يخالف الجماهير . وقد بينا الحق في هذا كله وبيننا اسباب الزلازل بحسب ما دل عليه العلم في كتابنا (الحكمة الشرعية) وانها لاعلاقة

لها بالجور ولا بالعدل

(٥) ومنها قصة النيل - قال السبكي ان النيل كان في الجاهلية لا يجري حتى يلقي فيه جارية في كل عام فلما جاء الاسلام وجاء وقت جريان النيل أتى اهل مصر الى عمرو بن العاص فأخبروه ان لنيلهم سنة وهو انه لا يجري حتى يلقي فيه جارية بكر بين ابويها ويحمل عليها من الحلي والشباب افضل ما يكون فقال لهم عمرو ان هذا لا يكون وان الاسلام يهدم ما قبله فأقاموا ثلاثة اشهر لا يجري قليلاً ولا كثيراً (لملأه يريدانه لا يجري زيادة عن العادة) حتى هموا بالجلأ فكتب عمرو بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر قد اصبحت ان الاسلام يهدم ما قبله وقد بعثت اليك بطاقة فالتقها في النيل ففتح عمرو البطاقة فاذا فيها (من عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك نسأل الله الواحد القهار ان يجريك) فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب وقد تهيأ اهل مصر للجلأ والخروج منها فاصبحوا وقد اجراه الله ستة عشر ذراعاً . قال السبكي فانظر الى عمر كيف يخاطب الماء ويكاتبه ويكلم الارض ويؤدبها . اقول ان هذه الحكاية مبنية على التصديق بان النيل كان قبل الاسلام لا يفيض فيضانه الا بعد وضع الجارية المدراء فيه وانها لخرافة اذا جاز ان يصدقها اغبياء الوثنيين الذين يعتقدون ان النيل من الآلهة لا يفيض الا اذا أرضوه بمثل ذلك او ان الآلهة يجرونه بحسب اهوائهم وان القاء الجارية من ذرائع استجدائهم - فلا يجوز ان يصدقها مسلم يعتقد ان الحكيم العليم اقام هذا الكون بنظام ثابت وسنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل منها ان الانهار تجري من ينابيع كالعيون الصغيرة تنفجر من بطن الارض وتستمد في ايام الشتاء من الجداول

والوديان التي يجتمع ماؤها من المطر . وان ماء الينابيع من المطر على ما بيناه
في المقالة الاولى من مقالات الكرامات . انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع
في الارض . . وقد علم ان النيل يجري من بحيرتين عظيمتين في الاقاليم
الاستوائية . وانما يفيض على مصر فيضانه المعلوم في فصل الصيف لان
صيف هذه البلاد شتاء في تلك البلاد ولا يكون الفيضان الا تدريجاً لان
المطر يكون كذلك وانما يقل الفيضان ويكثر بقلّة المطر وكثرته في تلك البلاد
التي ينبع منها ويستمد مما دونها . ويجوز ان يقل الفيضان في اول عهده ثم
يكثر في آخر المدة تبعاً لاحوال المطر ولكن لا يتأتى ان يجري في يوم واحد
سته عشر ذراعاً ولو حصل ذلك لكان ضرره اضعاف نفعه فان زيادة عظيمة
كهنه في نهر عظيم كالنيل اذا جاءت دفعة واحدة لا يكون شأنها الا هائلا وعظيماً .
وحاصل القول انه ان صح ان فيضان النيل كان يتوقف قبل الفتح
الاسلامي على القاء البنت المدرء فيه وان هذا بطل بالاسلام فان الحارق
للمادة والآتي على خلاف سنة الكون هو ما كان قبل الاسلام لا ما بعده
وهذا قلب لقصد القائلين بالكرامة هنا . ولو بنيت هذه التمسمة على اصل
معتقول لكانت هكذا . كان قدماء المصريين يعتقدون ان النيل نهر مقدس
كما يعتقد الهنود بنهر الكنج وكان من تقاليدهم انه متى جاء وقت الزيادة فيه
يزيتون احدي بناتهم ويلقونها فيه معتقدين ان الزيادة لا تأتي اولا نفي
بحاجة البلاد افعالوا هذا كما يلقي الهنود انفسهم في نهر الكنج اتباعاً
لتقاليدهم الدينية . وان عادة المصريين هذه استمرت الى عهد الاسلام . وان
الفاروق رضي الله عنه امر بابطالها لا اعتقاده بطلانها ومخالفتها للاسلام . وانه
اتفق ان الزيادة كانت قليلة في اول تلك السنة والفيضان بطيئاً . وان عمر لما

بلغه ذلك تضرع الى الله تعالى ان يغيث عباده ويزيد في النيل لئلا يعنقدوا ان منعهم من القاء البنت هو الذي منع فيضان النيل . وان الله تعالى رحم تضرعه واستجاب دعاءه بان كثرت الامطار في تلك الاثناء في البلاد التي ينبع النيل منها ويجري فيها . وانه كتابه ما وصل الى عمرو بن العاص الا والنيل قد طفق يزيد زيادة سالحة حتى وصل في يوم عيد الصليب الى ستة عشر ذراعا وهي الزيادة المعتدلة التي تكفي البلاد كما هو مقرر في كتب التواريخ . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . وان هذه الزيادة الكثيرة في اواخر مدة الفيضان كانت من زيادة المطر قطعا فان كانت مما اقتضته طبيعة تلك السنة كما يكون في بعض السنين في كل عصر فذلك توفيق من الله على يد أمير المؤمنين حكمته ابطال تلك السنة السيئة وان كان حصل بدعاء عمر فهو كرامة له لان استجابة الدعاء بما يخالف المادة المطردة في الخلق كرامة بلا ريب . ولكل أحد ان يعتقد من ذلك ما ارتاح اليه نفسه . وهذا وان الحكاية لم ترد بطرق صحيحة موثوق بها فتستحق هذه العناية . ولكن العناية والرحمة تجبان لأمة يصدق اكابر علمائها (كالناج السبكي صاحب جمع الجوامع) بان النيل كان لا يجري الا اذا أقيت فيه فتاة صفتها كيت وكيت وان عمر أدبه بكتابه له فرجع عن غيه . وقد ابتليت هذه الامة بتقديس الاموات والتسليم لهم بكل ما قالوا . ولولا ان حالة العصر انارت بعض الازهار وأعدتها لقبول الحقائق ورفض الخرافات لما كان لنا ان نكتب ما كتبنا والله الهادي الى سواء السبيل

(للكلام بقية)

